﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين إنـكـار البعث، وحِـوارِ القيامة الـمُخرِسِ لكلّ لسانٍ

لمّا ذكرَ بيانُ اللّه إنكارَهُمُ البَعثَ أعقبَه هنا بوصف حالِهم حين يُحشَرونَ إلى اللّه، وهو حالُ البعثِ الَّذي أَنكروه، وبِكُفرهم سَيذوقونَ العذابَ لا محالةَ، "إذ يقول اللّه لهم: أليس هذا (الّذي) تشاهدونَه الآن هو الحقُّ الّذي أنكرتموه في دُنياكم؟ فيقولون مُتذلّلين: بلى وربِّنا إنّه الحقُّ، فيقول اللّه لهم بعد ذلك: ادخلوا النّار، بسببِ ما كنتم حريصين عليه منَ الكفرِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وُقِفُواْ﴾: "وَقَفَ: الواو والقاف والفاء: أَصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شيءٍ، ثمَّ يُقاسُ عليه، ومنه: وقَفْتُ أَقِفُ وُقوفًا"[2]، الوقوفُ: خلافُ الجُلوسِ، ووقفَ بِالمَكانِ وقْفًا، ووُقوفًا، فهو واقفٌ، والجمع: وقفٌ، ووُقوفٌ، ووقفَ الدّابَّةَ: جعلها تقفُ[3]، والمعنى "لو تراهم حين يقفون للحساب أمامَ ربّهم، ويَعرفون صدقَ ما أنزله على رُسله، لرأيتَ سوءَ حالهم"[4].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: ذَوَقَ: الذّال والواو والقاف: أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشَّيءِ من جهةِ تَطَعُّمٍ، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقتُ المأكولَ أَذوقُه ذَوْقًا، قال الزّبيديّ: "ومنَ المجاز: قولُه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]؛ أي: أوّلَ ما ينالُكم منها، قال الأخفشُ: جعل

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.

المسَّ مذاقًا، كما يقال: كيف وجدتَ طعمَ الضّرب؟ وكقولك: وجد فلان مسَّ الحُمّى؛ أي: أوّلَ ما ناله منها"[1]، وبهذا الاشتقاق يكونُ معنى ﴿فَذُوقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وذُقْتُ ما عندَ فُلانٍ: اختَبَرتُه، وكلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ من مَكروهٍ فقد ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوسَ، إذا نظرَ ما مقدارُ إعطائِها، وكيف قوَّتُها[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ موقفِ الجاحِدين، حالَ رُؤيةِ البعثِ الّذي كانوا يُنكرُون

ولو ترى الكافرينَ حين حُبِسوا عندَ ربِّهم يومَ القيامة، وقال لهم موَبِّخًا ومُقرِّعًا على كُفرهم السّابقِ بالبعث في الحياة الدُّنيا: أليس هذا الّذي تَرَوْنَه الآنَ منَ العذاب بالحقِّ والصِّدقِ؟! فأَقرّوا على أنفسِهم واعترفوا، حيثُ لا يَنفعُهم ذلك؛ بل يُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ الّذي كنتُم تكذِّبونَ وُقوعَه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّناسبُ السِّياقيّ بين الآيتَيْن المفتتحتَيْن، بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾:

لا مفرَّ للمُنكرين في المَحشرِ، منَ المُساءلةِ والعذابِ الأكبرِ

هنالك مناسبةُ الجوارِ، وهي مناسبةٌ سيّاقيّةٌ بين الآيتَين المفتتحتَيْن بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، عطفًا على نظيرِها في السّياق قبْلَها، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهذا العطفُ لا يفيدُ ترتيباً زمنيًّا؛ لأنّ التّرتيبَ في الذّكر ومراعاةِ التّرقّي هو المعتبرُ ههنا، وفي كلا الحالَيْن؛ هنالك موقفٌ مَهولٌ، سوف يتعرّض له أولئك الكفرةُ المعانِدون للّه، والمُنكرون للبعث، فيتمنّونَ وهُم يقفون على النّار عودةً للدّنيا، ما يلبثُ السّياقُ أن يكشف فيها سرائرَهم، وأنّهم سوف يَبقَون على ضلالِهم ونُكرانِهم، حتّى لو أُعطوا فُرصةً

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (مَسَسَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 209.

للعودة، وعند وقوفِهم على ربِّهم، سوف يَرون العذابَ رأيَ العين، ويَصطلون بحرِّ النّار الّتي كانوا بها يكذّبون.

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾:

دورُ السّياقِ في توبيخِ المُنكرين على كُفرِهم بما أخبرَ به ربُّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ شروعٌ في حكاية ما سَيَصدُرُ عنهم يومَ القيامة، منَ القول المُناقِض لما صدرَ عنهم في الدُّنيا من كُفرِهم بالبعثِ، وهذا الخطابُ إمّا لرسولِ الله ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ من أهل المُشاهَدَة والعَيان، قَصدًا إلى بيان سوءِ مُعتَقدِهم باللّه والبَعث بعد الموت، وما كانَ لذلك من أَثَرٍ كبيرٍ في كمال سوء حالِهم وبُلوغِها منَ الشَّنّاعة والفَظاعةِ، ممّا أدَّى بهم إلى سوء العذابِ الّذي سيُعانونَه[1]

دلالةُ استعمالِ أداةِ الشّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾، مع حذْفِ جوابِها:

تجليةُ مقْصَدِ الآيــةِ، وتأكيدُ صِـدْقِ الرّسولِ النّذيرِ فيما يُنذِرُ به

هذا مشهدٌ من مشاهدِ القيامةِ، يُساق إليه المُشركون، بعد دُنياهم الّتي اغترّوا بها وأنكروا ما وراءها.. من بعثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ.. وقد عبّرَ القرآنُ في هذا السّياقِ عن مشهدِ المُحاكمةِ ومشهَدِ الحُكم[2]، بهذه الجملةِ الشّرطيّةِ الّتي خاطبتِ الوجدانَ النّبويَّ المُبلّغَ بالنّذارةِ وتخاطبُ كلَّ تالٍ للقرآن على مدى الأزمان؛ لأنّ العواقبَ واحدةٌ ينتهي إليها كلُّ كافرٍ لدودٍ ويقطفُ غِراسَها كلُّ مُنكِرٍ كَنودٍ في كلّ عصرٍ ومصرٍ، وقد ورد جوابُ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّةِ محذوفًا، تقديرُه: (ولو تَرَى ... لَرَأيتَ أمرًا شَنيعًا)[3]، وعِلَّةُ الحذفِ الثِّقةُ بظُهورِه والإيذانُ بقصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، وتجليةُ مقصدِ الآية، وهو الإخبارُ عن هَوْلِ ما لَقوه والتَّعظيمُ لما شُقوا به، وبيانُ أمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصدقِه وتحذيرِه وإخبارِه بعقابِ مَنْ كفرَ[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/155.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/282.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

المخاطَبُ رسولُ اللهِ ﷺ وكلُّ مَنْ يَسمعُ هذا الخبرَ، مع تجدُّدِ الرُّؤيةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ لتجدُّدِ واسْتمرارِ رُؤيةِ المخاطَبينَ، بحيث لا يختصُّ اسْتغرابُها براءٍ دونَ راءٍ ممَّنِ اعْتادَوا مشاهدةَ الأمورِ العجيبةِ؛ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤيةُ يستمرُّ في تعجُّبِه مع اسْتمرارِ حصولِ ما يُتعجَّبُ منه من وُقوفِهم، كوقوفِ العبدِ الجاني بين يديِّ سيِّدِه، للعقابِ الَّذي يَسْتحقُّه[1].

دلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾:

ينـدمُ المُنكِرُ للبعث بعد بعْثِه، ولاتَ حينَ مَندمِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾: حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لدلالةِ ما في حيِّزِ الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ عليه؛ أي: لو تَراهُم حينَ يوقَفونَ على ربِّهم، وهم يُسألونَ هذا السُّؤالَ التَّقريريَّ، - وفيه ما فيه كذلك منَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ لكُفرهم بالبعْثِ، وهم الآن في خِضَمِّ مَشاهدِه ومُعاينةِ أحوالِه وأهوالِه - لَرَأيتَ ما لا يَسَعُه التَّعبيرُ، وهو مشهدٌ لو استحضره المُنكِرُ، وتمثّلَ جلالتَه وهولَه، لبادرَ إلى الاستدراكِ في هذه الحياة قبل أن تضيع الفرصةُ بالفوات.

دلالةُ صِيغةِ الماضي المبنيِّ للمفعول ﴿وُقِفُواْ﴾:

تنـويـعُ صِـيـغِ الفعلِ تستوعبُ مشهدَ الكَفرةِ المَهُولَ بين يدي الله

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[2]، وبناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ لعدمِ تعلّقِ الغرضِ بذكرِ الفاعلِ، والتّركيزُ هنا على الحدَثِ، وقد بُني للمفعولِ وسُترَ الفاعلُ؛ لأنّ المعلومَ أنّ الّذي يوقِفُ العبادَ أمامَ اللّه همُ الملائكةُ، ويُبنى الفعلُ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للعلْمِ به، وهو شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزّمر: 73]، والسّوقُ كالإيقافِ، هو حشرٌ للمَعْنيّين في

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/190.

صعيدٍ واحدٍ أمامَ اللّه، ومعنى آيةِ الزُّمر: ﴿وَسِيقَ﴾ بصيغةِ الماضي المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعلُه: "وحُشر الّذين اتّقَوا ربّهم بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدّنيا، وأخلصوا له فيها الأُلوهةَ، وأفردوا له العبادةَ، فلم يُشركوا في عبادتهم إيّاه شيئًا، ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1]، والمعنى كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: "ولو ترى حالَ المُشركين، حين تَقِفُهمُ الملائكةُ بين يدَيْ ربِّهم، لوجدتَ هولَ أمرِهم، ورأيت أمرًا خطيرًا مُدهشًا لا يحدُّه وصفٌ"[2].

دلالةُ المَجازِ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، الوقوفُ ههنا مجازٌ عن الحَبْسِ للتّوبيخ والسُّؤال، كما يوقَفُ العبدُ الجاني بين يَدَيْ سَيِّدِه ليُقَرِّرَهُ، أو أنّهم عَرَفوا ربَّهم حقَّ المعرفةِ[3]، ويمكنُ أن يُرادَ كذلك: وُقِفوا على جزاءِ ربِّهم وحُكمِه وقضائِه فيهم[4]، وهو توجيهُ مَن يُؤوِّلُ على الإيجاز بالحذفِ سعيًا إلى التّنزيه، مثلِ: القولِ بالحذفِ في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22] على تقدير: وجاء أمرُ ربّك، أو حُكمُ ربّك، ونَحْوِه.

المُنكرون موقوفون بواسطةِ الملائكةِ، امتثالًا لأمرِ الله ووعْدِه فيهم

بيانُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

وثمّةَ تأويلٌ آخرُ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أنّه تمثيلٌ لحضورِهم المَحشرَ عند البعثِ، شُبِّهتْ حالُهم في الحُضور للحسابِ بحال عَبدٍ جنى جِنايةً فقُبضَ عليه فوقفَ بين يدي سَيِّده، وهكذا يكون الأمرُ في هذا المشهد يومَ القيامة، وُقوفُ العبد بين يَدَيْ ربِّه ﷻ للحسابِ، وبهذا تَظهرُ مَزيَّةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ (اللّه)[5]، واعتبارُ التّمثيلِ أَولى؛ لأنّه يُحفِّزُ خيالَ المستمعِ حتّى يَحسُنَ تلقّيه

الجاني موقوفٌ بين يدَيْ سيّدِهِ لتَطالَه عدالةُ الله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/338.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

لهذا المعنى المهيبِ، واعتبارُه لا يؤثّرُ في عقيدة التّنزيه لله سبحانه عن مماثلة المخلوقين، قال الزّحيليّ: "وظاهرُ الآية غيرُ مُرادٍ قطعًا؛ لأنّه استعلاءٌ على ذات الله تعالى، وهو باطلٌ بالاتّفاق، وإنّما هذا من قبيل المجازِ ... وهم موقوفون ومحبوسون بوساطةِ الملائكة، امتثالًا لأمرِ الله فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصّافّات: 24]، وعبّرَ بهذا التّعبير: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ أمرَهم مقصورٌ على الله، لا يتصرّفُ فيهم غيرُه"[1].

نُكتةُ مجيءِ ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضيًا وبيانُ حذفِ مُتعلّقِه:

الوقوفُ بين يدي الله الحسيبِ وقوفٌ مُزلزلٌ مَهيبٌ

قولُه: ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضٍ لفظًا، ومعناه في السّياقِ الاسْتقبالُ، أي: إذْ يوقَفونَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُهُ ثقةً بظهورِه، وإيذانًا بقُصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، أي: لو تراهم حين يوقَفون على ربِّهم للسُّؤالِ والعقابِ لَرأيتَ ما لا يَسعُه التَّعبيرُ. وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، فهو آتٍ مُستقبلًا، ولكنَّه في حيِّز الوقوعِ الحاليِّ لتأكيدِ تحقُّقِه[2]، والمعنى: "وُقِفوا على ما وعدَهم ربُّهم من عذابِ الكافرين وثوابِ المؤمنين، وعلى ما أخبرَهم به من أمرِ الآخرة أو يكونُ المرادُ وقوفَ المعرفةِ"[3].

سِرُّ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾:

المَقامُ مَقامُ إجْلالٍ وإظهارِ أفضالِ ذِي الجلالِ

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؛ لأنَّ هذا المقامَ من مقاماتِ الجَلالِ، بما اقْتضاهُ إضافةُ الرَّبِّ إليهم، أي: الَّذي طالَ إحسانُه إليهم، وحِلْمُه عنهم، فأَظْهرَ لهم ما أَظْهرَ في ذلكَ المقامِ، من تبكيتِهم وتوبيخِهم وتقريعِهم[4] والمعنى: "ولو ترى يا محمّدُ، هؤلاء

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/480.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88 - 89.

القائلين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، إذ حُبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾: أي: على حُكم ربّهم وقضائِه وعدلِه فيهم"[1]، فقيل لهم ما قيل في ثنايا الحوارِ المُدرَجِ في السّياقِ.

دلالةُ الاستئنافِ البيانيّ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾ قد أَذِن بمشهدٍ عظيمٍ مَهولٍ، فكان من حقِّ السّامعِ أن يسألَ: ماذا لَقوا من ربِّهم؟، فيُجابَ: أنَّه قال ﷻ لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾[2].

أفادَ السّياقُ اعترافَ الكافرينَ بالإنكارِ، وسيقَ الحوارُ خلالَه للاعتبارِ

الاستفهامُ التّقريريُّ وأثرُه في المعنى، في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

إنَّ الاستفهامَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وهو قد دخلَ على نَفيِ الأمرِ المُقرَّرِ به؛ لاختبارِ مِقدارِ إقرارِ السّائلِ؛ فلذلكَ يُسأَلُ عن نَفيِ ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطمَعٌ في الإنكارِ تَذرَّعَ إليه بالنَّفيِ الواقعِ في سؤالِ المُقرِّرِ، والمقصودُ: (أَهَذا حقٌّ؟)، فإنَّهم كانوا يَزعُمونَه باطلًا، ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قبْلَه، وهو ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ الإضرابِ، فهو يُضرِبُ عمّا قبلَه ويَعتمِدُ ما بعدَه، وهو هنا أَبطلَ النَّفيَ السّابقَ له، فهو إقرارٌ بوقوعِ مضمونِ السُّؤالِ؛ ولذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾؛ أي: بلى هو حقٌّ"[3].

دورُ (بلى) في الإضرابِ، وإبطالِ النّفيِ المُسوقِ في الآيةِ

بيانُ المُشارِ إليه بـ (هذا) في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

المُشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ هو ما شاهدوه وعايَنوه من البعثِ وما يتبعُه من الأُمورِ العِظامِ، حيثُ كانوا في الدُّنيا يُكذِّبونَ وقوعَ ذلكَ كُلِّه[4].

المُشارُ إليه هو البعثُ وما يتبعُه من كلِّ ما يُرسّي العقيدةَ

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

دلالةُ الباءِ الزّائدةِ في سياقِ الاستفهامِ المَنفيّ، في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾:

الاعـتـرافُ أمـامَ عـدالـةِ الـلـه لا يُعفِي من عذابِ النّارِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾، نلاحظُ في سياقه تجلّي اللّه على طائفة الكفرةِ الجاحِدين من عباده، بسؤالِ المُستنكِرِ لحالِهم في الدّنيا ولِحُجَّتِهِمْ في قولِهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، بسؤالٍ منطقيٍّ وجيهٍ، هو قولُه لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: أليس هذا البعثُ الّذي تُعاينونَه، وتَشهدون أهوالَه، شهادةَ معاينةٍ وإبصارٍ، هو بعثٌ ثابتٌ بالحقّ واليقين، فقولُه: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ متعلّقٌ بمحذوف، أو نقولُ: إنّ (الباء) زائدةٌ، ويكونُ المعنى: أليس هذا البعثُ هو الحقُّ الّذي لا ريبَ فيه؟ وتكونُ (الباء) لتأكيدِ معنى الإنكارِ الّذي هو بمعنى النّفْي، وقد دخل على نفْيٍ، ونفيُ النّفي إثباتٌ، ولقد كانت إجابتُهم مصدّقين؛ لأنّ الواقعَ يحملُهم على التّصديق والإذعان، لما يدعو إليه ربُّ العالمين، بقولِهم كما حكى ربُّهم[1]، ولا مندوحةَ عنِ الإذعان والإقرارِ، بما ذكره الحكيمُ الجبّارُ، إذ عادةُ المُنكِرِ إذا ما ووجِهَ بالدّليل القاطع، أن لا يستطيعَ الإنكارَ، بلِ الغالبُ أن يُعلنَ الاعترافَ، ويَسوقَ الاعتذارَ.

إيرادُ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ، في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾:

الاعـتـرافُ مع الـقـسَـم، ردعٌ عـنِ الإنـكـارِ، وإيحاءٌ بالنّدمِ على الإصرارِ

لقد أكَّدَ المُنكرون اعترافَهم ذلك بالقسَم، تَحقيقًا لاعترافِهم؛ لأنَّه معلومٌ للّه ﷻ؛ أيْ: تُقِرُّ ولا نَشُكُّ فيه، فلذلك نُقسِمُ عليه، وهذا منِ استعمالِ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبر[2]، مع ما في القسَم بالرّبِّ سُبحانه، في قولِهم: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ منَ الدّلالةِ على تضمين القسَم اعترافًا بربوبيّة الخالقِ وتدبيرِه، وقدرتِه وتصريفِه؛ حيثُ لا ينفعُ الاعترافُ، وهذا الحِوارُ استدعاه السّياقُ منَ الغيبِ المستقبليِّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.

وجَعَله حاضِرًا أمامَنا، كأنّنا نراه، ونسمعُه، مع ما فيه من تشويقٍ وتأثيرٍ، فإنّه رادعٌ قويٌّ لمن حرَّفوا فطرةَ اللّه الّتي فطرَ النّاسَ عليها، حتّى يثوبوا إلى رُشدِهم قبْلَ أن يقفوا هذا الموقفَ المهولَ.

سِرُّ استعمالِ مادّةِ الرُّبوبيّةِ في القَسَم، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾:

القسمُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة تغليظٌ للقسَمِ وتعظيمٌ له

اسْتعملَ بيانُ اللّهِ القَسَمُ بالرُّبوبيَّة، فقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، ولم يأتِ القَسَمُ بالأُلوهيَّة؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا يُؤمنونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، ولم يكونوا يؤمنونَ بتوحيدِ الألوهيَّة، فجاءَ قَسَمُهم اسْتصحابًا لحالِ ما كانوا يؤمنون به في الدُّنيا، وهذا مصداقُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزُّخرف: 87]، فهم كانوا يؤمنون بأنَّ اللّه هو الخالقُ لهم وللمكوَّناتِ، والخَلْقُ من معاني الرُّبوبيَّةِ.

بيانُ عوْدِ الضَّميرِ المُستَترِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

عَـوْدُ الضَّـميرِ المُـستَـترِ إلى الكافرين

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ﴾ على المُشركين المُكذِّبين بالبعثِ والنُّشورِ والجنَّةِ والنّار، ولذلك قال بعدَه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسببِ كُفرِكم في الدُّنيا بذلك أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به[1].

دلالةُ فاءِ التَّفريعِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

ترتيبُ عذابِ الكافرينَ على اعترافِهم بكُفرِهم مُفيدٌ في الدّلالةِ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: ذوقوا العذابَ الَّذي عايَنتُموه، و(الفاءُ) هنا للتَّفريعِ عن كلامهم، أو هي الفاءُ الفصيحةُ؛ أي: إذا كان هذا الحقَّ فَذوقوا العذابَ على كُفركم؛ أي: بالبعث، وجاءتِ الفاءُ لترتيب التَّعذيبِ على اعترافِهم بحَقيَّةِ ما كفروا به في الدُّنيا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّعذيب هو اعترافُهم بذلك؛ بل هو كُفرُهُمُ السّابقُ بما اعترفوا بحقيَّته الآن، كما نطقَ به قولُه ﷻ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2]، ولا شكّ أنّ ذلك الاعترافَ المذكورَ في السّياقِ على ألسنة أولئك الكفرةِ الفجَرةِ، هو إيذانٌ بسَريان العدالةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

السّماويّةِ في الأرض والسّماءِ، وفي الدّنيا والآخرةِ، وأنّ الاعترافَ الذّاتيَّ لكلّ جاحدٍ كنودٍ هو الّذي يؤكّدُ مصداقيّةَ الأخبارِ الّتي حدّثنا عنها القرآنُ الكريم، وخصوصًا ما تعلّق منها بمشهدِ القيامةِ، حيث يكونُ الاعترافُ عنِ النّفسِ سببًا في ذوقِ العذاب.

مفهومُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾:

أبلغُ في الدّلالةِ على بشاعةِ الذّنبِ وهوْلِه

"وذَوْقُ العذابِ استعارةٌ لإحساسِه؛ لأنَّ الذَّوقَ أقوى الحواسِّ المباشِرةِ للجسم، فشُبِّه به إحساسُ الجِلْدِ"[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ "أي: فانْغمِسوا في العذابِ ذائقين لآلامِه، مُحسّين بها، فالذّوقُ هنا كنايةٌ عنِ الإحساسِ الشّديدِ بعد الانغماسِ فيه، والأمرُ هنا أمرٌ تكوينيٌّ، يَحكي الواقعَ الحقَّ، وقد يكونُ مع ذلك أمرًا قَوليًّا، لا اختيارَ لهم فيه، بل إنّه مجابٌ بالاضطرارِ"[2].

الباءُ السّببيّةُ وأثرُها في المعنى، في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾:

عاقبةُ الكفّارِ إلى بَوارٍ وخَسارٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ (الباءُ) سببيَّةٌ، و(ما) مَصدريَّةٌ؛ أي: بسببِ كُفركم؛ أي: بهذا الَّذي كفرتُم به في الدُّنيا، أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، فيدخلُ كفرُهم به دخولًا أوَّليًّا، ولعلَّ هذا التَّوبيخَ والتَّقريعَ، إنَّما يقعُ بعدَما وُقِفوا على النّارِ، فقالوا ما قالوا، إذِ الظّاهرُ أنَّه لا يَبقَى بعدَ هذا الأمرِ إلّا العذابُ، فهو يقول لهم: "﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: بسببِ دوامِكم على سَترِ ما دلّتْكم عليه عقولُكم من صدْقِ رسولِكم، ولا شكَّ أنّ الكلامَ - وإن كان على هذه الصّورةِ - فيه نوعُ إحسانٍ؛ لأنّه أهونُ منَ التّعذيب مع الإعراض في مقامِ ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، ولذلك كان ذلك آخرَ المَقاماتِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/90.

سِرُّ استعمالِ مادّةِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دونَ (تجحدون) أو (تشركون):

الكفرُ: اسْمٌ يقعُ على ضُروبٍ من الذُّنوبِ كالشِّركِ باللّهِ، والجَحْدِ للنُّبوَّةِ واستِحلالِ ما حرَّمَ اللّهُ، وغيرِها من الخِصالِ المضادّة لخصال الإيمان؛ لأنَّ العبدَ إذا فعلَ خَصْلَةً منَ الكُفرِ، فقد ضيَّعَ خَصلةً منَ الإيمان، فهو تغطيةٌ لكلِّ أساسٍ ورُكنٍ من أركانِ العقيدةِ الإيمانيَّة.

الكفرُ أوسعُ دَلالةً منَ الجُحودِ والشِّركِ

والشِّركُ من أبشعِ الصّفاتِ الّتي ندّد بها القرآن كثيرًا[1]، والجُحودُ دونَه، وأكثرُ ما يُطلَقُ على جَحْدِ النِّعمة، ونقيضُه الشُّكرُ، وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لمادّة ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ أوْفى بالسّياقِ القرآنيِّ، حيث إنَّ صفةَ الكُفرِ فيها المبالغةُ في صفةِ أولئكَ الَّذين أنكروا ألوهيَّةَ اللّهِ، فلم يَعبُدوه، ولذلك قيل لمضيِّعِ الإيمانِ: كافرٌ، لِتَضييعِه حقوقَ اللّهِ تعالى وما يجبُ عليه من شُكرِ نِعَمِه، فهو بمنزلةِ الكافرِ لها، وقيل لكلّ كفرٍ: شركٌ للمبالغةِ في صفته، وذلك لِعظَمِ وخُطورةِ ما معه منَ المعصية[2] فيكونُ قولُه: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ عامًّا، قدِ استوعَبَ بمفهومِه ودَلاليّتِه كلًّا منْ (تُشْرِكونَ) و(تَجْحَدونَ).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وُقِفوا) و(حُبِسُوا):

يُقالُ: حَبَسَ الرَّجُلَ عن حاجَتِه، إذا مَنَعَه عنِ التَّصرُّفِ فيها، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الحَبسَ يكونُ لمن تمكَّنَتَ منه، فالحَبْس يكونُ بعدَ التَّمكُّن[3]. والحَبسُ: المَنعُ منَ الانبعاث، قالَ ﷻ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 106]. والتَّحبيسُ: جَعلُ الشَّيءِ مَوقوفًا على

الوقوفُ مؤقَّتٌ لا حَبْسَ فيه، بينما الحَبسُ تأبيدٌ أو مَنعٌ منَ الانبعاثِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 454 - 455.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 455.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190.

التَّأبيدِ، يُقالُ: هذا حَبيسٌ في سبيل اللّه. ويُقالُ في الوُقوف: وقَفتُ أقِفُ وُقوفًا، وهو يَدُلُّ على تمكُّثٍ في شيء، ثمَّ يُقاسُ عليه[1]، وقولُه تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ: جائزٌ أَن يَكونوا عايَنوها، وجائزٌ أَن يَكونوا عليها، وهي تحتَهم، والأجودُ أن يكون معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُدخِلوها فعرفوا مِقدار عذابِها، كما تقول: وقفتُ على ما عِند فلان: تُريدُ قد فهمتَه وتبيّنتَه[2].

ممّا سبقَ يتَّضحُ أنَّ استخدامَ البيان القرآنيّ للفعلِ ﴿وُقِفُواْ﴾ أنسَبُ منَ الفعلِ (حُبِسوا) لسياق النَّصِّ القرآنيّ في عَرضه لمَشهد الكافرينَ المُنكرينَ للبعث؛ لأنّه وقوفٌ مؤقّتٌ لا حَبسَ فيه. وقد شُبِّهت حالُهم بمنِ ارتكبَ جُرْمًا، ومَكَثَ بينَ يدي سيِّدِه ليعاتِبَه أو يُعاقبَه، وهو ما دلَّ عليه الفعلُ ﴿وُقِفُواْ﴾ بالتَّحديد، دونَ حاجةٍ لاستعمالِ معنى التَّأبيدِ أو المنعِ منَ الانبعاث اللَّذين يدُلُّ عليهما فعلُ الحَبس.

(الذَّوق) و(الإحساس):

"الإحساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقد أَحسَستَه، ومعناه: أَدرَكتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]؛ أي: تعرَّفوا عليه بإحساسِكُم"[3]. والذَّوقُ: إدراكُ الطُّعوم، حتَّى إنَّه استُعمِلَ مجازًا في الإحساسِ بالعذاب، كما في الآية الكريمة من قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُرُ منَ الطَّعام، فخُصَّ بالذِّكر هنا ليَعُمَّ الأمرَينِ معًا، ولذلكَ كَثُرَ استعمالُه في العذاب في آياتٍ كثيرةٍ[4]، ثمَّ إنَّ

الـــــذّوقُ الإحـــســـاسُ بالعذابِ مجازًا، بينما الإحساسُ الـشُّـعـورُ به حقيقةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(2) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 23.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذوق).

الإحساسَ أثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوقُ، واستعمالُ الأَصلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرعِه أو أثَرِه، وأولئك الَّذين أنكَروا البعثَ هم الآنَ وجهًا لوجهٍ أمامَ البعثِ؛ بل هم في داخل أحداثِه وأحوالِه وأهوالِه، فَليَذوقوا العذابَ في اليوم الَّذي كانوا يُنكرونَه ويَستهزئون به، ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ الكريمِ للفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾ أقربَ وأنسبَ من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمجرَّدِ الإحساسِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»